قصة قصيرة

السيدة ذات العكاز

كانت السيدة في الستين من عمرها ، قصيرة القامة تبدو على وجهها آثار السنوات الماضية ، تمشي وقد توكأت على عكاز يساعدها على المسير .. لاول وهلة لم انتبه اليها ، ولكنني وقفت عندها لحظة وتذكرت انها هي بالذات تلك المرأة التي تعمل عند السيدة التي كنت أزورها منذ سنوات عديدة مضت . كان للزيارات طعم الحب المشتعل والشعور الصادق عندما يصمم على التحدي .. ثم ينتصر في النهاية .

كانت هذه السيدة ذات العكاز أكثر فتوة وشبابا مما هي عليه الان . كانت في الاربعين تقريبا .. وكنت كلما زرت السيدة تستقبلني بترحاب وود صادقين وفي نظرتها كانت تشتعل رغبات عديدة . وأحس أنها تزداد متعة بحضوري .. لعلها كانت تطلع على ما كان يدور بيني وبين السيدة من احاديث خلال الجلسة التي كانت تمتد الى ساعتين أو ثلاث ساعات أو أكثر .. اذ في كثير من الاحيان كانت عندما يقترب موعد انصرافها كانت السيدة تقول لها :

ـ يا فوزية .. لا تتأخري عن اللحاق بالباص .. لقد أقبل المساء ودارك بعيدة ..

وكانت فوزية تجيبها بأدب صادق :
ومن يخدمك ويخدم ضيفك اذا غبت يا سيدتي ؟

وكان الجواب يأتي ممتعا وباعثا لسرور عميق :
ـ الاستاذ ضيفي .. أتركي لي متعة خدمة ضيوفي بنفسي .

وكنت أسمع صوت الباب الخارجي وهو يغلق .. دليلا على انصرافها بدون جلبة .. ولا طلبات ..

بين الزيارة والاخرى كنت أحمل بعض الهدايا للسيدة .. زجاجة عطر . ثوب نسائي ، بعض الهدايا الخاصة التي يصعب ذكرها وتعدادها في كل وقت .. وكنت لا أنسى السيدة فوزية من هداياي ايضا . وكانت تشعرني أنها ممتنة وانها يوما بعد يوم كانت تعتني بما تقدمه لنا من مأكل وضيافات وتزداد عناية بنا يوما بعد يوم .

لم تتوقف العلاقة مع السيدة وان كانت العواطف في مجرى صغير مستقيم أمر صعب . ووقع الخلاف تعثرت بعض الشيء . طوفان كبير متدفق ، وتنظيمها بين الطوفان والمجرى .. وتراخت الزيارات .. وفترت الحماسة لكل ما كان جميلا عند السيدة وفي بيتها .. وغابت أشياء كثيرة ومنها وجه السيدة فوزية .

رأيتها مرة أو مرتين .. وانقطعت الاخبار نهائيا .. في المرات الاولى كانت تحاول ان تحدثني .. ولكنني كنت لا أقف في الطريق .. مرة وقفت أمامي ولم تبارح ..

علي بدور

فوقفت .. سلمت فسلمت . ظلت صامتة فقلت لها :

ـ كيف حالك يا ست فوزية ؟

فأجابتني باسمة :

ـ حالي فقط يا سيد أمين أم حال السيدة أيضا ؟.

فقلت وانا أحاول أن أطوي صفحة كان بقاؤهـــا مفتوحة مبعث عذاب لي :

ـ وكيف حال السيدة أيضا ؟

فقالت وهي تحاول أن تخفي دمعة كبيرة :

ـ لقد انقطعت أخبار السيدة عني منذ أن سافرت الى لبنان . لعلها تزوجت من رجل لبناني وأنا عدت الى بيتي .

***

مرت سنوات كما قلت . تزوجت السيدة من رجل لبناني . فوزية لزمت منزلها ؛ قد تكون عملت عند أناس اخرين أم لم تعمل .. لست أدري أنا ، مررت بكل مـا يخطر على البال .. قامت صداقات جـديدة .. ذبلت صداقات قديمة طمرت السنون ذكريات وغرست عواطف ومشاعر .. وأقبل ربيع وذهب خريف .. ولا أزال في الطريق اغالب الزمن وتأثيره المدمر على كل شيء .

ولكن عكاز السيدة فوزية .. نبهني الى أشـياء كثيرة .. السيدة فوزية نفسها لم تعـد كما كانت .. كانت مشرقة الوجه ، ذات حيوية وطاقة على خدمـــة الاخرين لا تجارى .. وها هي اليوم تزحف نحو النهاية مستعينة بعكاز .. السيدة التي كانت واسطـة الشمل بيني وبين فوزية .. لشد ما اختلف الطوفان مع مجرى الساقية !.. نزحت الى لبنان وتزوجت . لعلها هدأت واستقرت أو أنها لا تزال تصارع الطـوفان وتحـارب الاستقرار .. انا نفسي اضحت هذه المشاعر والعواطف والخواطر ، من ذكريات الماضي .. كنت احس بتوتـر عذب كلما اقترب موعد الزيارة الموعودة .. وكان هذا التوتر يبدأ قبل ساعات واحيانا قبل ايام .. وكنت انا اصعد درج منزل السنيدة، فكان التوتر العاطفي يزداد.. وحين أطرق الباب في الموعد المعين كانت السيـدة هي التي تفتح الباب ، وكانت فوزية عندما ترى السيـــدة واقفة خلف الباب تشعر انني سوف احضر .. فكانـت تدخل المطبخ وتغلق الباب عليها تاركة للسيدة متعـــة الاستقبال وحرية الترحيب وخلال الزيارة كان التـوتر يخف .. ليختزن مشاهد حية وفصولا جديدة من كتاب هذه المعرفة .. حتى اذا غادرت احسست بشعورغريب من الراحة التي يعز وصفها ، الا انني وبعد فترة تطـول او تقصر ، كان التوتر يعاودني انتظارا للزيارة التالية.. وظللت على هذه الحال اكثر من عام ..

انني الان وانا اتابع عكاز فوزيـة علـى الرصيف وحركاته خطوة خطوة .. كنت احس ان هناك عكازا اخر في داخلي . ليس مهما ان يكون العكاز من خشب .. انه من نوع اخر .. ليس مهما ان اسميه لانني اعرفه .. احس به ، اعيشه في كل دقيقة وكل ساعـة .. انـه أشبه بالافق الرمادي حين لا يبقى اثر لنور الشمـس بلهبه ، ولا لنور القمر يطليه برقائق الفضة .. كنت مرة أتناسى أن هناك عكازا .. اخفيه عن عيني فأحس به في يدي .. عجزا وقصورا ، عن مشاركة الطبيعة بهجتها وحيوية دافقة ترفد الطوفان بالقوة المحركة حين يريـد ان يثور على الساقية .. تابعت السيدة فوزية طريقهـا وعكازها يساعدها على المسير ووقفت ارقبها من بعيـد وعكازي في صدري وقلبي وعيوني.. وتطلعت الى بعيد، الى الغرب ، احاول ان اشارك تلك السيدة التي كـانت ذات يوم زهرة في حديقة حياتي .. بعض المشاعر التي اججتها ذات يوم .. فلم استطع .. لقد كان الغـرب رماديا .. والشمس افلت من فترة .. وهناك اشيـاء كثيرة تحجب الرؤية عني .. واحسست ان الزمن يركض امامي ويترك لي ظلاله الكئيبة .

ولا ادري كيف تطلعت الى المارة .. كانوا نسـاء ورجالا ومن مختلف الاعمار .. ولمرة واحدة وخـــلال فترة جد قصيرة ابصرت كثيرا من الرجال والنســـاء الذين كانوا يعبرون الشارع وعكاكيز كثيرة كانوا يحملونها لتساعدهم على المسير ، دون ان تراها العيون .

***

في طريق العودة كان العكاز يدق على جدار القلب دقات منتظمة .. وكان صوت ضرباته مسموعا بالنسبة لي بكل وضوح . ولفتني الحيرة .. ترى ايهما ابعث على السلوى : عكاز السيدة فوزية الذي يراه الجميـع ام عكازي الذي يدق على رصيف القلب دون ان يراه احد؟.

حلب